

ذاكرة الألم !!

❖ بقلم يحيى رباح

التغريبية الفلسطينية، المسلسل الدرامي التلفزيوني الذي أذيع في شهر رمضان الكريم، جدد في حلقي طعم الألم، وألهبني نيران الذاكرة من جديد، وجعلني استحضر الصورة من أولها لهذه التراجيديا الفلسطينية التي ما زالت فصولها تتوالي يومنا هذا !!

ولقد كنت واحدا من الأطفال الذين إنهارت خيمتهم فوق رؤوسهم في ليلة شتائية إعصارية، وكنت شاهدا علي ما حدث في ليلة الرحيل المفجعة من قريتنا - السوافير - الي المجهول، حين كان الهول عظيما، فحملت أمي مخدتها بدلا من طفلتها الرضيعة التي كانت قد ولدت قبل أيام، ويا لها من شهادات متوهجة بأقصى درجات العذاب الإنساني التي يحملها ذلك الجيل الخارق من الفلسطينيين الذي أنتمي إليه !!

وهذا الثلاثي الرائع :

الذي تمكن من إنجاز مسلسل " التغريبية الفلسطينية "

وهم الدكتور وليد سيف مؤلفا والفنان حاتم علي مخرجا والنجم جمال سليمان بطلا، يستحقون التهنئة والإعجاب معا، حيث أنهم غاصوا في مياه صعبة وعميقة وملينة بالتيارات القاتلة رغم أنها تبدو للناظر من بعيد أنها مياه سهلة وصافية !! حيث أن فصول هذه التغريبية الفلسطينية لها أبطال رئيسيون، والأبطال ما زالوا علي قيد الحياة ممثلين بالأنظمة العربية الذين لم يعترفوا قط لا بأخطائهم ولا بخطاياهم، حتي أنهم حرموا علينا عبر ست وخمسين سنة أن نطرح الأسئلة الحقيقية، لماذا يهاجر سكان قري إجزم وعين غزال وجبع الذين علي بعد أمتار من جنين وغيرها، لماذا يهاجرون الي البصرة في أقصى جنوب العراق، ومن الذي أخذهم هناك؟؟؟ ولماذا يهاجر سكان الجولان الفلسطيني الي حلب، وسكان إصبع الجليل الي أبعد نقطة في الشمال اللبناني، ولماذا..

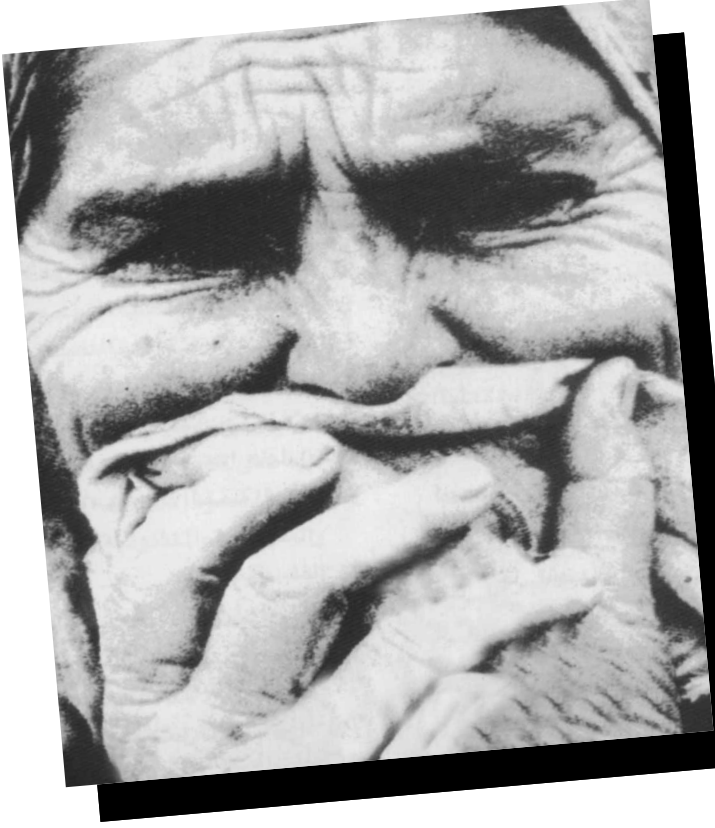
ولماذا ..؟؟؟

وقد رأينا بوضوح :

كيف أن هذا الثلاثي الرائع الذي أنتج المسلسل، قد استعاض عن الحقائق والوقائع في بعض الأحيان بالإيحاء، وهذا هو هامش الإبداع الفني الذي استثمره الدكتور وليد سيف بكل البراعة الممكنة، والذي أضاعه المخرج حاتم علي بهذه القدرة الشفافة والذكية التي تعرف كيف تتحرك وسط حقول الألغام !!

ومن المؤكد :

أن النقاد المختصين وخاصة في فلسطين مدعوون إلي الالتفات بقوة إلي هذا المسلسل الجميل والشجاع والمنصف في أن واحد، حيث أن التراجيديا الفلسطينية بحاجة ملحة إلي إعادة الإحياء علي الصعيد الفني، إنها ملحة كبرى يتداخل فيها الواقع الحاد بالخيال الجامح، الرجاء واليأس معا، الموت والحياة في لحظة واحدة، طيف ابتسامات وأنهار من دموع، وما زالت هذه الملحمة بعيدة جدا عن حدود الإستبطان، والغوص في طبقاتها العميقة، والرحيل الي شواطئها التي تتجاوز حدود المستحيل، وهذا كله إرث الأجيال الذي



يجب أن يحيا، ويتجدد انبعاثه مرة وراء الأخرى، حتى يعرف الجميع معجزة الله الكبرى التي تحققت في هذا الشعب، شعب اكتملت شروط موته، ومن قلب هذه الشروط فجر ينباع الحياة !!

وحيث أنني لست ناقدًا دراميا :

فإنني أحببت فقط أن أشير الي الفلسطينيين في هذه الأيام بضرورة الانتباه الي حقيقة ما حدث لشعب اختلف أعداؤه علي كل شئ فيما بينهم ولكنهم اتفقوا عليه !! مع العلم أن أعمق سمات الراحل العظيم الرئيس عرفات أن ذاكرته كانت يقظة جدا لحقيقة ما حدث، فهو أبدا لم يصدق غسل الكلمات، وهو في أصعب الاختبارات كان يدعونا الي فضيلة الانتماء الي الذات، وهو كان يؤكد علينا بدون كلل أو ملل أن دمننا محرم علينا، وخبزنا محرم علينا أن نضيعه، وسلاحنا نخبئه تحت جلودنا، وسرنا نحفظه في حدقات العيون !!

إن مهماتنا الراهنة ليست نوعا من الفانتازيا، ليست ألعاب تسلية، فإذا زلت أقدامنا -لا سمح الله - فقد تتوه بنا الطريق ونعود سيرتنا الأولى يتاجر الآخرون بلحمننا ونحن نحملق فيهم مشدوهين وليس أي شئ آخر !!

هذا ينطبق علي نظرتنا الي الانتخابات القادمة، والتي بفية الانتخابات المستحقة، والتي مؤسساتنا الوطنية الشرعية وكيف نقويها وليس كيف نتبرأ منها بسداجة، والتي وحدتنا كيف نصونها لا أن نجعلها حطبا للنيران !!

التغريبية الفلسطينية :

هذه التراجيديا المذهلة، ما زالت فصولها مستمرة، وكل لحظة من حياتنا السياسية يجب أن نضيئها بالانتباه، الي أين نحن سائرون، إلي تغريبية أكثر متاهة واتساعا أم الي وطن ودولة وكيان؟؟؟